

## محمد بلعربي العلوي والتأصيل للنضال الوطني السياسي المغربي

صلاح الدين عياش\*

ayach02@gmail.com

توطئة تعنى هذه المقالة بدراسة ما قدمه شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي من إسهامات في تجديد فهمه للدين الإسلامي، وتأثيره على مسيرة النضال الوطني ضد المستعمر. كما أنها تبحث في كيفية تبني بلعربي العلوي لخيار المقاومة ضد الاستعمار الأجنبي ومواجهته لكل أشكال البدع والطريقة النابعة من الفهم المغلوط للدين، إضافة إلى طريقة توليفه بين الأصول النظرية للسلفية كما استقرت عليها المدرسة المشرقية والمدرجات الجماعية للأمة المجتمعية التي يعيش فيها. كما تبتغي مقالتنا هاته، تسليط الضوء على دور تجديد فهم الدين في إحياء المدرجات الجماعية للأمة المجتمعية العربية باعتباره تمثلا معنويا، ومن ثم إعادة السلوك السياسي والنضالي إلى حضن هذه المدرجات الجماعية كتمثل واقعي؛ باعتبار هذه المدرجات<sup>1</sup>:

"مجموعة المبادئ المرجعية التي تميز السلوك الإنساني وتنتقل به من المستوى الفردي الخاص، ومن بعده اليومي والزماني المحدود، إلى مستوى السلوك الجماعي العام، وإلى البعد التاريخي المطلق المتوجه من ماضي الجماعة إلى مستقبلها، بما يشكل ناضما سلوكيا للوجود السياسي ولللاقات الاجتماعية وللوظيفة الحضارية للجماعة".

وكان محمد بلعربي العلوي ممن يؤمنون بأن تحرير البلاد من قبضة المستعمر لا يمكن أن يكون إلا من خلال إعادة تجديد فهم الدين الإسلامي الذي يعد معبرا لإحياء المدرجات الجماعية للأمة المجتمعية. ولهذا دعوة شيخ الإسلام لم تكن بعيدة عن الدعوات الإصلاحية التي انطلقت في المشرق العربي، التي ركزت على ضرورة العودة إلى أصولها في تفاعلها مع واقعها وتحدياته. حيث لم تشكل الإصلاحية المغربية استثناء مقارنة بالإصلاحية العربية، لأنها انطلقت من نفس الإشكالات التاريخية والقضايا السياسية التي حركت كل هذه الدعوات. فهذه الحركات السلفية والإصلاحية بالمغرب والمشرق كانت تؤمن بأن عملية التجديد في السياق العربي والإسلامي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال العودة إلى الأصول والتفاعل معها، على اعتبار أن عملية التجديد هي الوفاء للأصول والانسجام مع مستلزمات الانتماء الحضاري للأمة العربية والإسلامية و مواكبة لمتطلبات العصر وتحدياته.

وتجلى النضج الحقيقي للحركة السلفية المغربية في انتقالها من الجانب التربوي والتعليمي إلى توظيف مشروعها الإصلاحي لخدمة المشروع الوطني التحرري، مع أبو شعيب الدكالي ومحمد بلعربي العلوي، وبعدهما محمد داود ومحمد بلحسن الوزاني وعلال الفاسي. حيث لم تقتصر على تأسيس مشروعها السياسي من أجل الاستقلال على أدوات الفعل السياسي فقط، بل أغنت ممارستها السياسية بالفعل الثقافي في بعده الإصلاحي والديني باعتبارها حركة ذات جذور فكرية منسوجة على منوال المشروع الإصلاحي السلفي كما تبلور مع محمد عبده وجمال الدين الأفغاني بالمشرق.. وهذا ما سنحاول توضيحه بالتركيز على تجربة شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، من خلال كيفية عن كيفية مساهمة الاتجاه السلفي التجديدي الذي تبناه في تأصيله للنضال الوطني ضد المستعمر ومحاربة الفهم الخاطئ للدين الإسلامي.

### [أولا] محمد بلعربي العلوي، النشأة والمسار

1/حياته بين مدغرة وفاس: يعد شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي مفكرا ومجاهدا وعالما ومصلحا مجددا وأديبا، وشخصية وطنية فريدة في التاريخ السياسي المغربي المعاصر. ولد الشيخ محمد بلعربي العلوي في 26 سبتمبر 1884 بالقصر الجديد بمدغرة، إحدى واحات "تافياللت" بجنوب المغرب التي منحت للشعب المغربي والأمة العربية والإسلامية أعلاما في مختلف الميادين العلمية والسياسية والثقافية والفكرية، حيث توفي رحمه الله بفاس في 4 يونيو 1964. وتلقى تعليمه الأولي بين أحضان أسرته حيث كان لوالده الدور الكبير في تربيته وتذنته المبكرة، كما كان لابن عمه الشريف مولاي علي الطيب والفقير المرحوم الطالب الجيلالي ووالدته الشريفة السيدة الهاشمية أيضا دور كبير في حفظه المبكر للقرآن الكريم.

ترعرع الشيخ في بيئة مثالية متشعبة بروح الوطنية والعلم والأخلاق الفاضلة، حيث كانت نشأته في هذه الظروف معينا له على بناء أسس الحركة الوطنية المغربية على درب النضال الهادف من أجل التحرير الشامل للإنسان والأرض من التخلف والتبعية والاستعمار.

ودخل محمد بلعربي العلوي الكتاب "الجامع" وهو في سن الخامسة من عمره ليحفظ القرآن ويتعلم القراءة والكتابة كما اعتاد كل أبناء مدينته، حيث يدخل الطفل إلى الكتاب في الخامسة من عمره يحفظ القرآن ويتعلم الكتابة والقراءة، ثم بين سن العاشرة والرابعة عشر يبدأ في مرحلة حفظ الأجرومية والألفية بالنسبة لعلوم اللغة والنحو، والرسالة ومختصر خليل بالنسبة لعلوم الفقه، وبعد هاتين المرحلتين الأساسيتين ينتقل الطالب إلى أحد المساجد الكبرى المعروفة في المدينة ثم إلى القرويين مباشرة (تبعاً للظروف الاجتماعية للطالب)<sup>2</sup>.

تنقل بلعربي العلوي في صباه بين كتاتيب ومدارس مدغرة وفاس تبعا لظروف الأسرة الاجتماعية إلى أن بلغ سن السابعة عشر من عمره<sup>3</sup>، حيث استقر به المقام بمدينة فاس، وانخرط هناك في جو طلب العلم بجامع القرويين، ثم صاحبه والده واستقرا بالمدرسة المصباحية الشهيرة التي تقع قبالة الباب الغربي من جامع القرويين. حيث يقول المؤرخ عبد القادر الصحراوي في هذا الصدد: "وعندما اشتد عوده، وأصبح في حوالي الثامنة عشرة من عمره، قرر والده الذي كان أغلى أمنياته أن يرى ابنه عالما كبيرا، أن يصحبه بنفسه إلى فاسط وأن يسهر بنفسه على توجيهه، وأن يأخذ بيده في هذه المرحلة الأولى من مراحل طلبه للعلم، حتى يشق طريقه، ويتمكن ويصبح مستقبلا العلمي مضمونا لا خوف عليه. وهكذا ترك والد الفقيد زوجته وأولاده بمدغرة، وهاجر صحبة ابنه محمد إلى فاس، حيث دخل الطالب جامعة القرويين، وسكن صحبة والده في حجرة بمدرسة الصفارين. ومكث الوالد إلى جانب ابنه تسع سنوات، يرعاه وينظم له دروسه ويراجعها معه، ويحثه على الطلب ويساعده عليه بجميع الوسائل الممكنة. وفي يوم من الأيام، وكانت أقدام الطالب قد رسخت في العلم، وحبه قد تمكن من قلبه، دخل عليه والده الحجرة التي كانا يسكنانها بها بالمدرسة، ولكن الطالب الذي كان منهمكا في كتاب بين يديه، لم يشعر بدخول والده، وتعهد والده ألا يزججه عن كتابه، فالتزم الصمت وظل ينتظر، ولكن انهماك الطالب في كتابه قد طال. إذ ذاك اطمأن الوالد، ووده ابنه، ورجع إلى مدغرة ليقول لهم عبارته: لقد غرست غرسا، ومكثت بجانبه زمنا أسقيه، والآن قد تمكن الغرس وانتهت مهمتي وها أنا أعود"<sup>4</sup>.

ويتضح لنا من خلال كلام المؤرخ عبد القادر الصحراوي الدور الكبير الذي كان يلعبه والد بلعربي العلوي في تربية ابنه، حيث جعل منه أرضية خصبة يمكن زرعها بما يؤهله كإنسان صالح متفوق، ووطني صادق، كما يمكن استثماره في تجارة تعود بالنفع على الوطن والأمة والإنسانية. وهو ما وقع فعلا، حيث تعامل الشاب محمد بلعربي العلوي بجديه منقطعة النظير في طلبه للعلم والمعرفة بجامعة القرويين. كما أنه عاش ثورة الكادحين والوطنيين الصادقين ضد التوقيع على الحماية الفرنسية، وتنفيذ أحكام الإعدام في حق ثوار العديد من القبائل المجاورة لمدينة فاس.

2/ حياته المهنية والعملية: حصل محمد بلعربي العلوي سنة 1912 من "جامعة القرويين" على شهادة العالمية - كما كان متداولاً آنذاك في الاصطلاح العلمي-، وهي السنة ذاتها التي تعرض فيها المغرب للإخضاع من قبل الاستعمار الفرنسي بموجب توقيع وثيقة الحماية. وكانت أول وظيفة تم تكليفه بها هي تعيينه "عدلا بأحباس فاس الجديد" في نفس عام تخرجه، ثم عين رئيسا للاستئناف الشرعي سنة 1928، ووزيرا للعدل سنة 1938.

التدريس: ابتداءً شيخ الإسلام حياته العملية بالتدريس بجامعة القرويين سنة 1912، حيث كان يدرك جيدا أنه من الواجب اتخاذ القرويين مكانا لإقناع الناس بأن وثيقة الحماية التي فرضتها السلطات الاستعمارية الفرنسية على المغرب لا يمكنها إلغاء تاريخ المغرب، وأن الاستعمار لا حق له في منع المغاربة من حقهم في المطالبة بتغيير المنكر<sup>5</sup>. وبهذا انخرط بلعربي العلوي في محاربة الاستعمار الفرنسي مستغلا موقعه للتدريس في جامعة القرويين، إضافة إلى محاربة كل أشكال الفهم المشوه والمغلوط للدين الإسلامي انطلاقا من فهمه للسلفية التي تبناها.

لقد كان التدريس بالنسبة إلى محمد بلعربي العلوي أمرا أساسيا طيلة حياته، حيث كان لا يفارق منبر التدريس حتى وهو متقلد لأكبر المسؤوليات بالدولة. وكان يعتبره وسيلة للتربية الخلقية والسياسية، أي تربية الناس على الأخلاق الحميدة وتربيتهم أيضا على قيم التحرر والمقاومة. درس شيخنا في جامعة القرويين وكان قد عين رئيسا لمجلسها الأعلى، كما أنه درس بالثانوية الإدريسية بفاس، والمدرسة الحرة بالمغرب التي ساهم بشكل كبير في إنشائها. وبعد انتقاله إلى الرباط درس في مساجدها ومساجد سلا والدر البيضاء أيضا، كما كان إبان نفيه يعقد حلقات للنقاش والتدارس في أي مكان تم تحويله إليه. إضافة إلى هذا انفسح مجال آخر للتدريس لشيخ الإسلام في مجالس الوعظ والحديث التي كانت تقام بالقصر الملكي بالرباط، والتي كان يحضرها إلى جانب الملك الهيئة الوزارة وكبار الشخصيات آنذاك، وكانت الإقامة الفرنسية تراقب هذه الدروس عن كتب وتوليها عناية خاصة، لكن محمد بلعربي العلوي لم يكن يقيم وزنا لهذه الأمور كلها، وكان يستغل فرصة تواجده هناك ليبسط الدين على حقيقته كما يفهمه بالانطلاق من عقيدته وقناعاته وشجاعته النادرة.

وكعالم ينتمي للاتجاه السلفي، فإن طريقته في تدريس أمور الدين كانت هي العودة لأصوله الأولى وتبسيط فهمها، حيث كان لا يستحضر كتب الفقه والعقيدة المعقدة، بل كان يعتمد على الكتب البسيطة في التحليل حتى يفهم طلبته أو يتجاوز الأمر بنفسه ليفسر مضامين آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. حيث كان بهذه الطريقة يدفع الطلبة إلى استغلال أوقاتهم دون الغرق في تناول النصوص المستعصية وشروحاتها، بل يذهبون مباشرة لفهم النصوص والموضوعات ذاتها. وكان تدريسه أيضا يسير في اتجاه تحبيب اللغة العربية وكل ما يتعلق بها لطلبته وتلاميذه، ومن النصوص التي كان يفضلها: ديوان الحماسة لأبي تمام، لما يبثه في نفوس قارئه من الشعور بالعزة والكرامة والرفعة، إلى جانب ما فيه من الأدب الرفيع. لهذا كانت دروسه تلقى إقبالا واسعا في أوساط الشباب، سواء من الطلبة أو الصناع التقليديين أو التجار مما لم يحظ بمثله إلا دروس تلميذه في السلفية علال الفاسي<sup>6</sup>.

إن جهود السلفي المناضل محمد بلعربي العلوي التعليمية والتربوية لم تكن مقتصرة على طلبة العلم والشباب الذين يهتمون بالأمور الدينية والشرعية، بل كان يحرص على أن يبلغ دروسه للجميع. ولذلك كانت له علاقة بالعديد من شباب الحركة الوطنية المغربية والمقاومة المسلحة، كما كانت له علاقة أيضا فيما بعد بالعديد من مناضلي الأحزاب السياسية الوطنية الذين كان يزورهم في مقراتهم ليحاضر فيها بما يتناسب واستحقاقاتهم الوطنية التحررية. فتخرج على يده العديد من رموز النضال الوطني المغربي والعديد من العلماء والمثقفين حيث أثر فيهم بدروسه وما كان يلقيه، ولعل شهادتهم أكبر دليلا على ذلك. ونذكر منها:

يقول الأستاذ محمد العلوي الزرهوني: "حضرت مجالسه العلمية بالمسجد المحمدي، فشرح البسملة شرحا لغويا ونحويا وبلاغيا ليركز عليها المعنى المراد، وبعدها تصدى للشرح والتحليل، ومن خلال شرحه أبرز شخصية المسلم المؤمن بربه الذي يأبى أن تستعين بال مخلوقين وأن يتمسح على أعتابهم ويستجديهم في حاجة من حوائجه، صونا لكرامته وحفظا لماء وجهه. وأكد تفسيره هذا بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأبيات شعرية. ثم أطنب في الحديث الذي رواه عبد الله بن مسعود: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك". وسمعت في المجلس التالي يشرح قول الله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين". حيث وضع أنه بهذا الحصر يمنع على المسلم أن يخنع أو يذل إلا لله عز وجل، ومن طلب منه ذلك فليقل بملء فمه: لا لا. وأطال حديثه هنا مبرزاً معنى الحرية ومعنى العبودية، وأوضح رحمه الله أن عبودية العبد للعبد إشراك بالله، وصاحبها لا نصيب له في مغفرة الله، وعبودية العبد لخالقه، اعتراف بوجود الله وشرف وعزة للمؤمنين بالله."

ويقول الأستاذ علال الفاسي: "قرأت على الفقيه محمد بلعربي العلوي المختصر بشرح الدردير، والتحفة بشرح الشيخ التاودي بن سودة، وجمع الجوامع بشرح المحلي، والكامل في الأدب للمبرد، ومقامات الحريري، وعيون الأخبار لابن قتيبة."

وفي تأثره بالسلفية يذكر العلامة محمد إبراهيم الكتاني أنه وجماعة من المخلصين، كالفقيه الغازي وعبد العزيز ابن ادريس وبوشق الجامعي والمختار السوسي رحمهم الله، مدينون للمرحوم الشيخ محمد بلعربي العلوي الذي قام بإزالة كل ما يصدئ روح الإسلام الصافية<sup>7</sup>. ويقول الدكتور محمد عزيز لحبابي أيضا: "سيدي إبراهيم من ركائز السلفية بالمغرب، إنه من مدرسة بلعربي العلوي الثائر أبدا على الطوائف الضالة والجمود".

ويتضح مما سبق أن التدريس كان أمرا أساسيا عند شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي، وهذا راجع لمركزية التعليم والتربية لديه. لهذا عندما نطالع مسار حياته نجده منذ بداياته الأولى وهو طالب في القرويين شرع في التدريس، ثم عندما أصبح أستاذا أو قاضيا أو وزيرا أو رئيسا لمجلس الاستئناف الشرعي.

العدلية والقضاء والوزارة: وقد كانت أول وظيفة كلف بها شيخ الإسلام بعد أن كان أستاذا هي تعيينه عدلا بأحباس فاس الجديد في أواخر سنة 1912. ثم بعدها بثلاث سنوات أسند إليه منصب قاضي فاس الجديد<sup>8</sup>، حيث كانت فاس آنذاك مقسمة بين ثلاث قضاة: قاضي الرصيف، وقاضي السمات، وقاضي فاس الجديد والأحواز. حيث عرف بنزاهته واستقامته في مزاولته لهذه المهنة، ولعل المكانة التي كان يحظى بها في نفوس الناس خير دليل على ذلك.

ورغم نزاهته هذه التي يشهد بها الكل، لم يسلم بلعربي العلوي من الدسائس التي كانت تحاك له للإيقاع به أو تشويه صورته وحتى إبعاده عن هذا المنصب. حيث كان اعداؤه يفترون عليه بسبب السلطان والتقليل من شأنه، باستحضار قوله قالها لأحد الملاكين الكبار الذي حكم الشيخ لرباعه المظلوم ضده، حيث أخبره الملاك أنه سيشكوه للسلطان، فقال له الشيخ: "طبل وغيط وزمر"، فوشى به فعلا، فأمر السلطان مولاي يوسف أن يعزل ويؤتى به مهانا، فتدخل المقيم العام ليشهد بنزاهته ورفعة أخلاقه وزهده وأن ليس من المصلحة عزله أبدا<sup>9</sup>.

وكان يزاول مهامه في المحكمة ويدرس في القرويين وينتدب للتدريس بالثانوية الإدريسية في آن واحد، كما كان دوره كبيرا في تأسيس أول مدرس حرة في المغرب وهي المدرسة الناصرية بفاس. وامتدت حقبة ممارسته للتدريس والقضاء قرابة العشرين عاما<sup>10</sup>.

وبعد سنوات من اشتغاله بنزاهة وأمانة في سلك القضاء، قامت السلطات الاستعمارية آنذاك بإعفائه من منصبه كقاضي شرعي لمدينة فاس، وكان عمره آنذاك خمسون سنة. لكن كان رد فعل السلطان محمد بن يوسف في قمة الوطنية حينما استدعاه إلى العاصمة ليسند إليه رئاسة مجلس الاستئناف الشرعي، ثم سيصبح على قمة وزارة العدلية ليكون أقرب الناس إلى الملك، ويلعب دور الوساطة بينه وبين الوطنيين<sup>11</sup>. لكنه استقال من رئاسة المجلس احتجاجا على تزايد تدخل القوى الاستعمارية ورفضها الاستجابة لمطالب الشعب المغربي، وهو ما جعل الحماية تضغط عليه للتراجع لكنه رفض.

**3/الأصول المعرفية والثقافية:** تلقى الشيخ محمد بلعربي العلوي علمه وتكوينه الشرعي والفكري والثقافي على يد العديد من العلماء والمثقفين، بدءا بوالده سيدي العربي الذي كان نائبا لقاضي فاس والذي كان له الدور الكبير في جعله يرتبط بالكتاب والقلم والمعرفة وجعلهم يرافقونه طيلة حياته أينما حل وارتحل، مما جعله يبلغ أعلى درجات التعليم في وقته. وقرأ شيخ الإسلام على يد العديد من العلماء كسيدي بن عبد السلام بن محمد بناني، وسيدي محمد بن قاسم القادري، وسيدي أحمد بن الجيلالي الأمغاري، وعمه سيدي محمد بن محمد بن محمد العلوي<sup>12</sup>.

ولازم أثناء فترة دراسته وتدريسه بالقرويين أئمة ذلك العصر، حيث كانوا معجبين به وبفصاحته وقدرته على الحفظ والاستظهار، وقيل فيه: "إنه يأتي إلى الدرس وقد استظهر كل ما يتعلق به استظهارا عجيبا، كما يستظهر الفاتحة، مع عدم تكلف في التعبير، وذلك في جميع الفنون، حتى كان مضرب المثل بين أقرانه"<sup>13</sup>. حيث كان طالبا مجدا يطالع كل ما يصله من أوراق ومجلات وكتب.

وكان محمد بلعربي العلوي في بداياته متأثرا بالطريقة التجانية، على اعتبارها هي الطريقة التي كانت منتشرة بشكل كبير في منطقة تافيلالت. وعرف في أوله أنه كان مدافعا عن الطريقة وأهلها بشكل شرس، إلى أن مده أحد الكتبيين بكتاب معنون ب

"الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" لابن تيمية، فتغيرت نظرتي للدين وفهمه وكيفية تنزيله، حيث وجد من خلال هذا الكتاب الدين الذي يحكم العقل والعلم، الدين الذي يحرر الإنسان من كل أنواع التحكم والاستعمار والعبودية ويخضعه لله وحده.

وكان لأستاذه أبي شعيب الدكالي الذي تأثر بالعديد من رموز الإصلاح الذين برزوا في ذلك الوقت كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا الدور الكبير في تغيير قناعاته وتجديد فهمه للدين والسلفية، حيث اطلع عبره على العديد من المجلات التي كانت تأتي من المشرق كـ "المنار" و "الشهاب" و "العروة الوثقى" وغيرها، حيث كانت هي المجلات الأكثر انتشارا في العالم الإسلامي آنذاك، وكان يديرها دعاة الإصلاح، كاللبناني شبيب أرسلان وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. كما اتصل به بلعربي العلوي وأخذ عنه العديد من الكتب التي أنارت فكره، كصحيح الإمام البخاري للقسطلاني والموطأ وجامع الترمذي ومقامات الحريري والنخبة لابن حجر وغيرها، فأضحى يناظر ويناقش من هم لا زالوا على النهج التقليدي على رأيه.

واطلع أيضا على الجريدة التي كان يصدرها العالم الأزهري الشيخ علي يوسف بعنوان "المؤيد"، حيث منها تعلم كيفية الكفاح ضد المتعاونين الدينيين الذين يخضعون للإسلام والمسلمين مقابل دنائير ودراهم وهدايا يمنحها المحتلون بسخاء. ومنها تعلم أيضا كيفية تلقين الناس المبادئ الحقيقية لأخذ موقف واضح وحازم من الاستعمار الفرنسي. كما كان قريبا من المدرسة العصرية بفضل اطلاعاته الكثيرة على رموز العديد من الثورات في العالم، حيث كان معجبا بالجزائري الأمير عبد القادر بن محي الدين، وبأحمد عرابي باشا المصري<sup>14</sup>.

وبدأ تفكير الشيخ محمد بلعربي العلوي يتغير تدريجيا في اتجاه القطع مع كل الممارسات التعبدية والسلوكية التي كان يقوم بها سلفا وهو وسط الطريقة التجانية. حيث استلهم مبادئ التفكير النقدي مما تعلمه من أستاذه أبي شعيب الدكالي، لينتقل من منطق التقليد والجمود إلى الفكر الإصلاحي المقاوم. لهذا أثر بشكل كبير في شباب الحركة الوطنية من خلال ما كان يبثه فيهم من قيم الكرامة والحرية.

## II

### [ثانيا] بلعربي العلوي بين العمل على النضال ضد المستعمر ومحاربة الفهم المغلوط للدين

عاش محمد بلعربي العلوي في سياقات وأحداث كثيرة جعلت نظرتي للعديد من الأمور تكون مغايرة لما كانت عليه سابقا، حيث كان لاحتكاك الشيخ بأستاذه أبي شعيب الدكالي وتفاعله مع إنتاجات المصلحين بالمشرق تأثيرا على فهمه للدين ودوره في الحياة والمجتمع، وكانت للاستعمار الأجنبي بالمغرب أيضا مساهمة في هذا الأمر من خلال تبنيه للاتجاه السلفي الذي يجمع بين الدعوة إلى العقيدة الصحيحة والعودة لأصولها والدعوة للنضال الوطني ومقاومة الاستعمار.

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن محمد بلعربي العلوي هو مؤسس السلفية الوطنية في المغرب الأقصى، كونه جمع بين الدعوة للسلف الصالح ومقارعة الاستعمار وأذنا به، حيث قال: "كان الشيخ محمد بلعربي العلوي نموذجا للعالم السلفي المناضل المتفتح، لقد ظل يحمل فكرا نيرا يتطور مع تطور الفكر الوطني والنضال الشعبي في المغرب، سواء أثناء عهد الحماية أو خلال عهد الاستقلال"<sup>15</sup>.

1/ بلعربي العلوي والتجديد السلفي: استطاع شيخ الإسلام أن يثبت في السلفية روحا جديدة تهتم بالعودة للعقيدة الصحيحة والدين الحق، والاهتمام بالواقع المجتمعي للشعب المغربي والذي كان يعني آنذاك مقاومة الاستعمار وبناء مستقبل مشترك للمغاربة عموما. ويرجع الفضل في هذا كله لأستاذه وشيخه أبو شعيب الدكالي الذي تزعم حركة الإصلاح الديني بجامعة القرويين، والذي كان يعتبر أبرز عالم سلفي وداعية وطني أقنع محمد بلعربي العلوي بطرح الفكر الإصلاحي القائم على ضرورة استعادة نموذج السلف الصالح ومحاربة كل أشكال الانحراف الديني والأخلاقي التي كانت تشيعها الزوايا والطرق، والوقوف سدا منيعا أمام كل محاولات الاستلاب والغزو بكل أشكاله التي يقوم بها الاستعمار الفرنسي بالمغرب.

مفهوم السلفية لدى بلعربي العلوي: تبنى الشيخ محمد بلعربي العلوي السلفية باعتبارها العودة إلى الاقتداء بنهج السلف الصالح الذي ساد التجربة النبوية وتجربة الخلفاء الراشدين، كونها ترنو إلى تلمس ماضي الإسلام والمسلمين وقت إشراقه، لمواجهة كل محاولات الزلل والانحراف اعتقادا وسلوكا، كما أنها تبتغي العودة إليه باعتباره يحفظ الرصيد الثقافي والتراثي القادر على مواجهة مقتضيات العصر، والمساعد على تحقيق الإصلاحات الكفيلة بالتطور والتقدم<sup>16</sup>.

وقامت الحركة السلفية بالمغرب على ستة أسس كما قدمها الأستاذ عبد الهادي بوطالب في كتابه "السلفية. استشراف مستقبلي"؛ أولا: الرجوع إلى مصادر الدين الإسلامي للاستقاء منها؛ ثانيا: فتح باب الاجتهاد لتطوير التشريع بما يواكب تطور العصر؛ ثالثا: مقاومة البدع والانحرافات التي اعتمدها بعض رجال الطريقة المتمثلة في الاعتقاد في نفع الأولياء، وتقديس أضرحة الصالحاء، والتوسل بدفنائها. رابعها: مقاومة أسلوب دعوة الطرق خاصة التي كان الاستعمار يحاول تسخيرها للدعوة له أو استغلالها للوقوف في وجه حركة الإصلاح التي كانت تأخذ على مهل طريقها؛ خامسا: الاعتماد على شرح القرآن وتفسيره علميا وإشاعة علم الحديث ونشره في الأوساط العلمية واعتباره المرجع الذي يعتمد عليه؛ سادسا: الارتباط بالتراث الإصلاحي الأندلسي والاهتمام بكتب الشاطبي كالموافقات والاعتصام<sup>17</sup>.

إن الباحث في سيرة شيخ الإسلام بلعربي العلوي يجد أن السلفية عنده لا تتجاوز ما ذكره عبد الهادي بوطالب، فهي سلفية تحارب الجمود وتقاوم محاولات تعطيل العقل، وتنهى عن الخنوع والاستسلام للظلم وتدعو لتحرير الإنسان من كل أشكال القيود. لهذا فدروسه التفسيرية التي كان يقدمه كانت عبارة عن وعظ وإرشاد وتوجيه إلى السلفية والإصلاح الديني بتحرير الأفكار والعقول من الأوهام والأباطيل والخرافات وباطل الاعتقادات<sup>18</sup>. إذا فهي ليست حركة تاريخية أو حركة استنفذت أغراضها، بل هي نموذج يجب استحضاره في أصوله وتكييفه مع الواقع المعاش لا التاريخي.

بلعربي العلوي ومحاربة انحرافات الطريقة : لعب شيخ الإسلام دورا كبيرا في محاربة الطريقة والتصوف المنحرف وما كان ينتجه ويفرز من قيم التواكل والاستسلام والخنوع، فرغم أنه كان طريقا تيجانيا وكان مخلصا في اعتناقها وظل لفترة طويلة على هذا الحال، إلى أن رجع أستاذه أبي شعيب الدكالي من المشرق حاملا فكريا سلفيا إصلاحيا ينطلق من أصول الدين ويتفاعل مع الواقع دون خرافة أو تزيف. فما كان له إلا أن دخل القرويين وصار ينير مشكاتها، ويضيء جوانبها بقبس من نور، فما لبث أن التف حوله نخبة من الشباب لا يستهان بهم، وانتشر مذهبه في الأوساط العلمية الراقية، وصار الناس ما بين مؤيد ومخالف. حيث كانت جل دروسه حاملة سيف الانتصار ضد أهل الطرق والزوايا والمشعوذين، وضد زيارات القبور والتعلق لها وطلب النفع منها<sup>19</sup>.

ومن خلال الدروس التي كان يلقيها في منبر تدريسه، كان يتناول القرآن بلهجة لا تخلو من صراحة وحرية وفكر، وكل همه أن يحارب الخرافات والشعوذة وكل مظاهر الجمود التي رانت على الفكر المغربي منذ أجيال<sup>20</sup>. كما أنها كانت عبارة عن وعظ وإرشاد وتوجيه إلى السلفية والإصلاح الديني بتحرير الأفكار والعقول من الأوهام والأباطيل والخرافات وباطل الاعتقادات، وهو متأثر بشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذة ابن قيم الجوزية في أفكارهما النيرة الإصلاحية.

وكانت حلقات الشيخ تهدف بشكل أساسي لمواجهة أدعياء المشيخة، وتطهير الدين من الخرافات التي ألصقها به كل أولئك الذين ربطوا مصيرهم بمصير الاستعمار. فمعركته هاته ضد الطريقة كانت في بعض اللحظات شديدة إلى أبعد الحدود، وكانت معركة عقائدية وسياسية أيضا. فالشيخ اختار موقفه من الاستعمار منذ اليوم الأول، واختار أيضا خصومه ممن يتعاون معه من مشايخ الطرق والزوايا الذين يحطون من عزيمة الناس ويقتلون هممه بفهمهم الخاطئ لفكرة القضاء والقدر لصالح المستعمر.

وانتصر شيخ الإسلام في حربه على الطرق أيام الحرب التي كانت تشن من قبل الاستعمار الإسباني والفرنسي على الثورة الريفية بقيادة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، حيث كان الاستعمار يستغل الطرق لبث نفس الهزيمة في نفوس القبائل المشاركة في الثورة آنذاك، ويدعوها للابتعاد عن الخطابي، ويستعينوا ببعض النصوص الدينية التي تنهي عن إلقاء النفس للتهلكة، وعدم الخروج عن السلطان، أن الخطابي وثورته ستهلك الناس وأنه خارج عن السلطان وجبت مواجهته.

ومع مرور الوقت انفضحت مواقف مشايخ الطرق، وبدأ الناس ينظرون إليهم بطريقة تتسم بالشك والحذر جراء ما كان يقوله عنهم بلعربي العلوي. وبهذا أصبح نفوذ الاستعمار يضمحل ويتلاشى، وهو ما جعل الاستعمار يشن حرباً شعواء على شيخ الإسلام.

ويحكي عبد السلام بن سودة عن بعض أثر الشيخ في محاربة انحرافات الطريقة: "من المآثر التي تحفظ له ولا تنكر، قطع شجرة السدرة الكبرى التي كانت قبالة باب ضريح الشيخ أبي غالب الكائن بحومة صريرة داخل باب الفتوح بمراكش. فإن هذه الشجرة كادت أن تعبد من دون الله، فقد كبرت واتسعت وطال عليها الأمد، وكانت النساء والصبيان وحتى بعض الرجال يقصدونها ويلتمسون بركاتها، وتعلق فيها الخرق المعقودة ولا يمكن حلها إلا بعد قضاء الحاجة المتطلبة. وكان ربما أعماهم الشيطان فيصادفون بعض الإجابة، فإذا رأيت منظرها اندهشت من كثرة ما يعلق بها من الخرق والتمايم وأوراق الكتابة والحروز وغيرها من الأمور التي يستغرب منها كشرع النساء، وكان من العادة الجارية أن كل من زارها وعلق بها مطلبه لا بد لاه من أن يدخل الضريح ويجعل فيه شيئاً من المال، لكي تقضى حاجته، ومن لا يفعل ذلك لا تقضى له حاجة، فكان ولاية الضريح وهم الشرفاء الطالبون يعظمونها مع الناس لأجل المادة التي تحصل هم. فكان يوم قطعها يوماً مشهوداً بين مستحسن ومخالف، وهناك من تنبأ له بإصابته بالشلل"<sup>21</sup>.

كما كان شيخ الإسلام سببا في خروج العديد من مشايخ الطرق مما كانوا يعتنقونه، كالشيخ تقي الدين الهلالي الذي تناظر معه في مدى صحة دعوى الشيخ أحمد التيجاني أنه رأي النبي صلى الله عليه وسلم يقظة، وعجز الهلالي عن ضحض طروحات بلعربي العلوي ونسفه لهذه الدعوى، وتبين له ضلال الاختيار الذي كان سائرا فيه، وتبنى بعد ذلك منهج السلف وتعلم على يد بلعربي العلوي.

هنا يتضح مدى اقتناع شيخ الإسلام بأن أسباب تخلف المسلمين وتراجعهم، هو ما تفتش بينهم من خرافات وجهل جعل ثقافة الاستسلام والخنوع تتسرب لهم نتيجة لما كان يروجه أهل الطرق والبدع. وفي هذا الصدد كانت للشيخ مناظرة مشهورة مع الأستاذ المختار بن محمود أحد علماء جامعة الزيتونة، حول سبب تأخر المسلمين. حيث كان هذا الأخير يدافع على فكرة تعدد سبب تراجع الأمة الإسلامية، فيما أقنعه الشيخ بعد نقاش طويل أن مقاومة التخلف تستوجب الذهاب مباشرة إلى أصل المشكل وليس تمظهراته.

2/النضال الوطني ومقاومة الاستعمار لدى محمد بلعربي العلوي: ساهمت جامعة القرويين التي درس فيها شيخ الإسلام في تكوين الروح الثورية والتحررية لديه، كما كان لتجديد فهمه للدين والتدين أثرا كبيرا في إقناعه بضرورة تحرير القلب والسلوك من التبعية العمياء ومن كل القيود.

ومن المعلوم أن محمد بلعربي العلوي عاش العديد من الأحداث السياسية طيلة حياته، حيث عاش حرب تطوان، ومؤتمر الجزيرة الخضراء، وإعلان الحماية، وانتفاضة الريف، والظهير البربري، وتأسيس الكتلة الوطنية، وتقديم وثيقة الاستقلال، وزيارة طنجة، ومؤامرة جوان وكيوم، واندلاع المقاومة وإعلان الاستقلال وإجراء الاستفتاء على أول دستور بالمغرب، وقيام أول مجلس نيابي. كل هذه الأحداث ساهم من موقعه فيها كعالم ومصلح ووطني مقتنع بضرورة النضال والكفاح ضد كل أشكال الغزو والاستعمار، لأنه أدرك بوعي عالي وعميق ما يعاني منه المجتمع المغربي والعربي والإسلامي بصفة عامة، وهو ما جعله يتبنى خيار الإصلاح والمقاومة كمشروع نهضوي شامل.

التحرر عند محمد بلعربي العلوي: يقصد بالتحرر لدى الاتجاه السلفي الإصلاحي تحرر القلب من التعلق بغير الله سبحانه، وتحرر العقل من قيود الجمود والتقليد، وتحرر السلوك من التبعية العمياء التي تميز الشخصية وتذيب مقومات الهوية والانتماء. كما أنه تحرر السياسة من الاستبداد، وتحرر الرأي والقرار من التحكم والإكراه.<sup>22</sup>

ويتضح التوجه التحرري لدى شيخ الإسلام من خلال مواقفه الكثيرة طيلة حياته، والتي أكد فيها أنه لا محيد عن تحرير الناس من العبودية لغير الله، وتحرير الفقهاء من التعصب والجمود، وتحرير القضاء من الظلم، وتحرير التعليم من التخلف،

وتحرير السياسة من الاستبداد والوطن من ربكة الاستعمار. وهو ما يؤكد أن السلفية ليست تقليد أو تخلف، بقدر ما هي إصلاح ونزوع نحو قيم الحرية والكرامة، كونها تنادي بالرجوع للأصول وترفض التقليد. وفي هذا الصدد يقول الفقيه الإدريسي: "مما عرف عن سيدي محمد بن العربي العلوي-شأنه في ذلك شأن أستاذه وشيخه أبي شعيب الدكالي ومحمد بن الحسن الحجوي وابن المواز ومن سار على شاكلتهم رؤية ومنهاج- دعوته الدائمة والمتجددة والصريحة إلى ضرورة الانفتاح على كل التيارات والمشارب الفكرية التي لا تتعارض في فلسفتها وأطرها المرجعية مع نوااميس الشرع وثوابته وكلياته، وتساعد في نفس الآن على تأسيس تصور وفهم جديد للخطاب الديني ينأى به عن التقليد والاجترار والمماثلة، كما كان عليه واقع الحال، ويرقى به إلى ارتياد آفاق التجديد والاجتهاد والإبداع بما يجعله قادرا على مواكبة مستجدات اللحظة التاريخية ومتغيراتها واستيعاب مشكلاتها وتعقيداتها وإيجاد الأجوبة الشرعية المناسبة لنوازلها. ولذلك لم يكن يتردد في دروسه بالقرويين وبثانوية مولاي ادريس وغيرها من الفضاءات في التنويه والإشادة بأفكار وطروحات بعض رواد السلفية الجديدة في المشرق الإسلامي؛ كمحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وغيرهما ودعوة جمهور متلقيه من الطلبة والتلاميذ وعموم الناس إلى التجاوب معها والانفتاح على مقالاتها وكتاباتهما. كما كان لا يتورع أيضا عن تدريس مذهب مالك إلى جانب مذاهب فقهية أخرى موازية اعتمادا على مدونات وكتب أئمتها ومشايخها دونما تعصب أو انحياز غير مبرر، مستندا في ذلك إلى منهجية علمية نقدية تعري مواطن الخلل والتجحر في المواد والكتب المقررة وطرق تدريسها وتؤسس لبدائل واقتراحات جديدة.

وبالرغم من كونه كان من محبي الطريقة التيجانية وأتباعها، فإنه تراجع عن ذلك ولم يأل جهدا في التشنيع على الطرق الصوفية ومناوئة شيوخ الزوايا ممن كانوا يشيعون البدع والمحدثات ويرتزقون بالدين والدجل ويوالون المستعمر وأذنا به سرا أو علانية خدمة لمصالحهم الدنيوية الضيقة وأغراضهم الذاتية المقيتة. كما دعي إلى إصلاح مقررات التعليم ومناهجه. ثم لم يقف عند هذا الحد بل شن جام غضبه ووجه سهام النقد إلى كافة مظاهر الانحراف الديني والأخلاقي وإلى كل العادات والتقاليد البالية التي استقرت في حياة الناس... ومع هذا كله امتزج كل ما يقوم به بلعربي العلوي مع مواقفه التي تماهت ومواقف الحركة الوطنية المغربية الداعية لتعبئة المجتمع المغربي بأكمله لضرورة التحرر من قبضة الاستعمار، خصوصا أن ممن انتصبوا للدفاع عن الشعب المغربي أغلهم تتلمذ أو رافق الشيخ محمد بلعربي العلوي وتأثروا به من خلال خطبه ومحاضراته، حيث كان يؤسس خطابا مبينا في جوهره على سلفية منفتحة ومقاومة"<sup>23</sup>.

ويكتسي رفض التقليد لدى السلفية معنى خاص من خلال ما راكمه شيخ الإسلام وما رواه عنه تلامذته وطلبته، حيث يقصد بها تجاوز كل ما تم جلبه من عصور التخلف والانحطاط، والاستفادة مما هو إيجابي ومهم، عبر تجديد فهمها للدين من خلال العودة للأصول مباشرة وتكييفها مع واقعنا المعاش. فالدعوة السلفية إذا في عمقها ليست عودة للوراء أو تراجعاً، بل هي دعوة أصالة للحفاظ على الخبرة المجتمعية العربية التي تكونت منذ بداية نشوء المجتمع الإسلامي.

فالسلفية لا تعارض التقدم والتطور، مادام التقدم بالنسبة للمجتمع العربي والإسلامي هو الانتقال من وضعية التخلف إلى وضعية متقدمة ليتحرر على جميع المستويات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها. فهي بذلك ضمنيا تعارض ما يطلق عليه بـ "الرجعية"، لأنه من الظلم والتجني أن يدعي البعض أن السلفية هي رجوع للماضي للاختباء فيه، بل العكس هي عودة للماضي لإحيائه واستثمار ما فيه ضد النكسة التي تعيشها الأمة العربية والإسلامية"<sup>24</sup>.

ولقد ران الجمود على عقلية كثير من فقهاء وعلماء الأمة، وهو ما جعل شيخ الإسلام يتبنى معرفة نافعة وفقه متقدم، وهو ما أعانه على الخروج من واقع الركود الذي هيمن على العديد من العلماء. فتبنيه للسلفية فهما وتطبيقا، ورفضه لكل أشكال التعصب والتقليد والخرافة، وانفتاحه على التجارب الإنسانية الأخرى، جعله يتقبل فكرة التقدم على جميع مستوياته: صناعيا وإداريا، وسياسيا، وتقنيا وغيرها.

وطنية شيخ الإسلام ونضاله السياسي: نشأت فكرة الحركة الوطنية المغربية واقعا بين الحربين العالميتين، حيث بدأت تتشكل تنظيما وعمليا مما مكّنها من خوض معركة النضال الوطني لتحرير الشعب المغربي من الاستعمار. وارتكزت مقاومة

الشعب المغربي للاستعمار على أمرين مهمين: التعلق بالأرض من جهة، والتشبث بالتقاليد من جهة أخرى. لهذا لا يمكن تصور الوطنية في المغرب خارج نطاق الإسلام، حيث تضبط الشريعة الإسلامية سلوكه الشخصي وحياة المجتمع الذي يوجد فيه، ويرى في سيطرة الأجنبي عليه وعلى وطنه خرقا واعتداء دائمين على حضارته المتصلة بدينه<sup>25</sup>.

ولقد كان لانتشار الاتجاه السلفي الوطني وسط النخبة المثقفة، وتأسيس المدارس العصرية على يد أناس وطنيين، وعودة شباب وطلاب أنهموا دراساتهم العليا في أوروبا والشرق الأوسط كمصر وسوريا وفلسطين ولبنان، آثار كبيرة في تأسيس وتنظيم كتلة العمل الوطني ضد الاستعمار الفرنسي<sup>26</sup>.

وكان لشيخ الإسلام الدور الأساسي في التمهيد للحركة الوطنية المغربية، وكان الباعث الديني عنده يتحكم في كل أعماله وتحركاته، فقد بعث الوطنية بين الناس من خلال دروسه التي كان يستغلها ليعبئ الناس ضد الاستعمار والوقوف ضده. والدليل على ذلك هو أن النواة الأولى للنضال الوطني انبثقت من تلامذته الذين درسوا على أيديه بالقرويين والثانوية العصرية الإدرسية والمدرسة الناصرية. وقد وثق هذه الحقيقة العديد من تلامذته الذين أصبحوا فيما بعد رموزا للنضال الوطني، كالأستاذ عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة، وعلال الفاسي وغيرهم. وقد عاش الشيخ العديد من الأحداث والقضايا التي أظهرت مواقفه خلالها وطنية الرجل وغيرته على بلده، ونذكر منها:

ثورة الريف: قامت ثورة الريف في عشرينيات القرن الماضي ضد الاستعمار الفرنسي والإسباني بقيادة المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي قام بدور كبير في لم شمل كل قبائل الريف وجباله وغماره تحت راية الكفاح والجهاد. وكانت أسى أمنيات محمد بلعربي العلوي وهو قاضي ومدرس بفاس آنذاك أن يلتحق بصفوف المجاهدين ليشاركهم ساحات القتال لاسترجاع شرف الوطن والأمة. ولكن هذه الأمنية لم تتحقق له وحز الأمر في نفسه كثيرا، لكنه عوض ذلك بالمعركة الإصلاحية التي كان يخوضها ضد كل عملاء الاستعمار من إداريين وساسة ومشايخ يستغلون جهل الناس لبث نفس الاستسلام في نفوسهم<sup>27</sup>. كما كانت حلقات دروسه عملا مؤثرا لدعم ونصرة ثورة الريف، حيث كان يقول للحاضرين: "إن موقف المشاهدة والفرجة كفر؛ فأحرى دور الانهزاميين والعملاء وكل من يساند الإدارة الاستعمارية".

واتضح موقف شيخ الإسلام الداعم لثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي بشكل جلي حين قطع الصلة مع كل الطرق خصوصا الطريقة التجانية، بل أكثر من ذلك، فهو من شن حربا كلامية ضدهم لما تأكد أنهم يتسلمون هدايا من المستعمرين الفرنسيين والإسبان، حيث كان يفضح بلعربي العلوي هؤلاء الطريقين أمام طلبته ويدين عملهم، باعتباره عملا يحافظ على تقاليد بالية تكبح انطلاق الأمة الإسلامية. كما كان يتجول في شوارع فاس وأسواقها يخاطب الناس علنا: "ماهي مساهمتك في دعم ثورة الريف؟"<sup>28</sup> وأيضا موقفه الذي أبدى فيه إعجابه بأسد الريف في اللحظات التي كانت سلطات المخزن تسدي إعانات هامة للجيش الفرنسي، خرج معلنا أن محمد بن عبد الكريم الخطابي هو محرر الأمة الإسلامية من السيطرة الأوروبية.

إن هذا كله يعبر عن الاقتناع العميق الذي ولدته له السلفية بضرورة النضال والتضحية من أجل كرامة الشعب المغربي، ولعل ما يركي هذا الأمر أيضا، عندما قرر الالتحاق بجيش بطل الأطلس موحا وحمو الزباني<sup>29</sup>. وذكر علال الفاسي في هذا الصدد في كتابه "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" أن: "شيخ الإسلام اشترى بندقية وشارك المجاهدين في حرب فرنسا المستعمرة، ملهبا روح الجند ضاربا مثلا بشجاعته وصبره".

الظهير البربري: يذكر أنه كان الشيخ محمد بلعربي العلوي كان يبكي لحظة إلقاء لدروسه عند صدور هذا الظهير، حيث كان يقول لطلبته أن الاستعمار أعلن الحرب بهذا الظهير. واستطاع بذلك أن يوقظ شعلة الوطنية ويدفع بطلابه إلى تكوين الخلايا الأولى للعمل النضالي الوطني لمواجهة الإدارة الفرنسية ضدا على هذا الظهير. كما كان لموقفه الراض لإيقاف الدروس التي كان يلقيها علال الفاسي بالقرويين بعد اندلاع المظاهرات والانتفاضات في كل شوارع المغرب، أثرا كبيرا في نفوس الوطنيين ورجال المقاومة المسلحة.

**المطالبة بالاستقلال:** كان لموقف شيخ الإسلام الداعم للمطالبة بالاستقلال أثر كبير في صفوف الوطنيين المغاربة والشعب المغربي قاطبة. فإبان تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944، وقف محمد بلعربي العلوي مدافعا عن فكرة الاستقلال وضرورة توحيد جهود كل الوطنيين والمقاومين في هذا الاتجاه.

فبعد أن توالى عرائض المطالبة بالاستقلال بشكل كبير على القصر الملكي سنة 1944، قرر الملك محمد الخامس أن يصطف إلى صوت الشعب المغربي، على عكس الإدارة الفرنسية التي لم تقم بأي ردة فعل تجاه هذا الأمر. فقام الملك بجمع المجلس الوزاري ليناقدش الأمر ويتحمل مسؤوليته أمام الشعب المغربي، وطلب من محمد بلعربي العلوي ألا يتحدث لأنه يعرف موقفه. فتحدث كل الوزراء وعبروا عن مساندتهم لمطالب الشعب المغربي، واتفقوا أن يقابلوا المقيم العام ليتفاوضوا معه بخصوص هذا الأمر.

وتمت المقابلة بين الوفد الوزاري والمقيم العام، فما كان للوزراء بأكملهم إلا أن يصمتوا ويخرسوا جميعهم، إلا محمد بلعربي العلوي الذي تصدى للمسألة وأراد أن يشرح للمقيم العام الأمر، لكن هذا الأخير قرر ألا يسمع وألا يفهم ما هو المطلوب، وقال: "إنه بمقتضى عقد الحماية، فإن فرنسا وحدها هي التي لها الصلاحية لإجراء الإصلاحات اللازمة في الوقت الذي تراه لازما"<sup>30</sup>. لكن شيخ الإسلام لم يطق سماع كلام كهذا الذي يتحدى به المقيم العام الشعب المغربي بأكمله، فرد عليه بلعربي العلوي قائلا: "مهما يكن الحال، فتأكد أننا لسنا خرافا، وحتى لو كنا كذلك، فإن الخراف نفسها لا تستسلم عن طواعية لمصيرها على يد الجزار، بل إنها تقاوم إلى أن تغلب أمرها"<sup>31</sup>. فعاد الوفد الوزاري لتقابل الملك مرة أخرى، لكن بوجه غير الذي كان سابقا، وهو ما دفع بلعربي العلوي تقديم استقالته من منصبه كوزير للعدل احتجاجا على تخاذل الوزراء وعدم اصطفاؤهم إلى جانب مطالب الشعب المغربي<sup>32</sup>.

أحداث النفى: مرت مدة قليلة جدا على الموقف الذي صرح به شيخ الإسلام بخصوص المطالبة بالاستقلال، وتوصل باستدعاء من إدارة الشؤون السياسية، ولما ذهب وجد الجنرال جيوم في انتظاره مع نائبه الأول بونيفاس، حيث أخبروه أنه قد تقرر نفيه، وأنهم يتركون له حرية الاختيار، فاختار قرية "القصابي" المتواجدة في الأطلس المتوسط، حيث رافقه ابنه مصطفى. وكان الشيخ في منفاه يجمع حوله الناس يتحدث إليهم حول رؤيته السلفية تجاه المجتمع والسياسة والأخلاق وما إلى ذلك. ولم تمر إلا ثلاثة أشهر تقريبا حتى جاء الأمر مرة أخرى بنقل الشيخ لمسقط رأسه "مدغرة" رفقة ابنه مصطفى. وكان يقوم بنفس ما اعتاد عليه سابقا من توعية الناس وتعبئتهم ضد المستعمر، وحين يتم التضييق عليه يدعوهم للاجتماع بعد الصلوات ليتحدث معهم فيما يشاء. لكن بعد سنتين؛ أذن له بالعودة إلى الرباط، ليلتقي أبناءه حيث وجدهم في ظروف صعبة جدا كما كان يحذرهم العديد من الناس إبان تقديم استقالته، واستقر بالرباط إلى أن أصبحت ظروفه المادية في تدهور، وهو ما دفعه إلى بيع بيته بالرباط والعودة إلى فاس ليشغل ببعض الزراعة وتربية الأبقار ليعيل أسرته<sup>33</sup>.

ولما عاد إلى فاس استأنف دروسه بالقرويين من جديد، حيث نهافت عليه الناس أكثر من أي وقت مضى، وقال لهم قولته المشهورة: "أنا طالب، فراشي لبدتي، وغطائي برنسي، ووسادتي بلغتي"<sup>34</sup>. وهو ما جعل الإدارة الفرنسية تصبر مرة أخرى إزاءه، حيث أصدرت أوامرها بضرورة توقيف دروسه، ودعته إلى أن يوقف خلط مواضيع الدين بتحريض الناس على النضال والكفاح ضد المستعمر، وهو ما جعله يذهب لمنطقة إيموزار لقربها من فاس ليبقى على تواصل مع أسرته، لكن رغم ذلك استمر في إلقاء دروسه وهو ما جعل الحماية تعيده لفاس وتفرض عليه الإقامة الإيجابية بتطويق بيته بالأمن الفرنسي. إضافة لكل هذا فقد عاش الشيخ أحداث وامتحانات أخرى في حياته انتصر فيها لمصلحة الوطن والشعب على مصالحته، ك لحظة نفي الملك محمد الخامس التي كان فيها شيخ الإسلام أسدا، حيث كان وفيًا لوطنه ومملكته. كما أنه رفض مفاوضات إكس ليبان ورفض أي استقلال للمغرب بدون رجوع الملك.

**القضية الفلسطينية:** إن انشغال شيخ الإسلام بالدفاع عن وطنه ومصالح الشعب المغربي، لم تشغله عن الاهتمام بقضايا المسلمين في باقي الأقطار الإسلامية، حيث كان يهتم لكل شبر من أرض المسلمين، خصوصا فلسطين. حيث ساند بلعربي العلوي القضية الفلسطينية، حيث كان يرسل قادة النضال الفلسطيني آنذاك كأمين الحسيني ليطلعهم على دعمه الصادق

واللامشروط للقضية الفلسطينية. كما حاول الالتحاق بالثورة الفلسطينية التي اندلعت سنة 1947 إلا أنه منع من ذلك، وحرص الشباب على الالتحاق بالثورة الأخرى سنة 1948<sup>35</sup>.

وقال علال الفاسي في هذا الصدد: "وصلني من الأمانة العامة لحزب الاستقلال رسالة تقول: إن أستاذنا الإمام ابن العربي قد أخبر حزب الاستقلال بأن يبلغ الجامعة العربية بأنه يضع نفسه تحت تصرفها للمقاتلة في فلسطين. ولكن: أيستطيع الأسد أن يخرج من وطنه الذي هو قفص الأحرار؟ ذلك ما لا ندره. ومهما يكن: فإن العمل من إمام وصل السبعين من عمره، لتأييد معنوي لإخواننا الفلسطينيين وهيئتهم العربية العليا التي يقودها المجاهد الأكبر السيد أمين الحسيني إلى ساحة الشرف ليصل بها قريبا لشاطئ السلامة والوحدة والحرية"<sup>36</sup>. الأمر الذي يبين الانشغال الكبير لدى شيخ الإسلام بقضايا الأمة ومساندته لقضية فلسطين، التي كان يعتبرها قضية كل مسلم وكل إنسان.

**خاتمة** إن العمل الذي قامت به الحركة السلفية الوطنية المغربية وعبرها الشيخ محمد بلعربي العلوي نظريا وعمليا، من خلال محاربته للانحرافات العقدية والسلوكية التي ألصقتها بعض بالدين والتي أسست لفهم خاطئ للدين وبثت في الأمة روح الاستكانة والمهادنة حتى مع الآخر المستعمر الذي يريد نهب خيرات وثروات البلاد، كان له الأثر الكبير في تجديد فهم الدين الإسلامي وجعله أحد أهم الدوافع الرئيسة لبث روح المقاومة ضد المستعمر. حيث لعب هذا الجهد الذي بذله بلعربي العلوي دورا مهما في مواجهة الآثار السلبية للوجود الاستعماري، خصوصا على مستوى الشعور والوعي بوجود الآخر المستعمر الذي حاول مسخ المعالم الأساسية للثقافة العربية الإسلامية عموما والمغربية بشكل خاص، تمهيدا لتحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية الرامية إلى نهب ثروات البلاد. ولهذا كانت الحركة السلفية الوطنية المغربية عموما مقتنعة بضرورة الاشتغال من خلال الحلقات التعليمية في المساجد والمدارس لبناء إيديولوجية مقاومة للاستعمار الخارجي والاستبداد الداخلي.

□

\* باحث بسلك الدكتوراه، تكوين العلوم السياسية والقانون العام، كلية العلوم القانونية والاجتماعية سلا، جامعة محمد الخامس بالرباط.

<sup>1</sup> سعيد خالد الحسن، *المدرجات الجماعية (مدخل نظرية القيم)*، الرباط، مركز الدراسات والأبحاث بمؤسسة خالد الحسن، الطبعة الأولى، 2010، ص5.

<sup>2</sup> للمزيد من التفاصيل، ر طارق القباج: *حياة شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الرباط، دار النشر طوب بريس، يونيو 2014، ط1) ص41.

<sup>3</sup> عبد القادر الصحراوي: *شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1965، ب ط) ص9-11.

<sup>4</sup> عبد القادر الصحراوي: *شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1965، ب ط) ص14-15.

<sup>5</sup> عبد اللطيف جبرو: *تاريخ الوطنية المغربية* (ب م، ب ن، ب ت، ب ط) ص73.

<sup>6</sup> طارق القباج: *حياة شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الرباط، دار النشر طوب بريس، يونيو 2014، ط1) ص81.

<sup>7</sup> علي بن المنتصر الكتاني: *العلامة المجاهد محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني: حياة علم وجهاد* (الدار البيضاء، مطبعة النجاح الحديثة، 1992، ط1) ص138.

<sup>8</sup> محمد المختار السوسي: *مشيخة الإليغيين* (الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 2010، ط1) ص189.

<sup>9</sup> طارق القباج: *حياة شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الرباط، دار النشر طوب بريس، يونيو 2014، ط1) ص114-115.

<sup>10</sup> عبد القادر الصحراوي: *شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1965، ب ط) ص32-34.

<sup>11</sup> عبد اللطيف جبرو: *تاريخ الوطنية المغربية* (ب م، ب ن، ب ت، ب ط) ص98.

<sup>12</sup> طارق القباج: *حياة شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الرباط، دار النشر طوب بريس، يونيو 2014، ط1) ص49.

<sup>13</sup> محمد المختار السوسي: *مشيخة الإليغيين* (الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، 2010، ط1).

- <sup>14</sup> طارق القباج: *حياة شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الرباط، دار النشر طوب بريس، يونيو 2014، ط1) ص51.
- <sup>15</sup> محمد عابد الجابري: *تطور الانتلجاسيا المغربية: الأصالة والتحديث في المغرب* (بيروت، دار الطليعة، ط1) ص27.
- <sup>16</sup> عبد الهادي بوطالب: *السلفية استشراف مستقبلي* (الرباط، منشورات الإيسيسكو، 1989، ط1) ص17-19.
- <sup>17</sup> المصدر السابق نفسه، ص25-26.
- <sup>18</sup> محمد بن الفاطمي بن السلي: *إتحاف ذوي العلم والرسوخ بتراجم من أخذت عنه من الشيوخ* (بيروت، دار الكتب العلمية، 2004، ط1) ص213-214.
- <sup>19</sup> عبد السلام ابن سودة: *سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال* (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ط1) ص195.
- <sup>20</sup> محمد الوديع الآسفي: *السلفي المناضل الشيخ محمد بلعربي العلوي* (الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1986، ط1) ص169.
- <sup>21</sup> عبد السلام ابن سودة: *سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال* (بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ط1) ص195-196.
- <sup>22</sup> حماد القباج: *حياة شيخ الإسلام: محمد بلعربي العلوي العالم المفكر، والمصلح المناضل* (الرباط، طوب بريس، 2014، ط1) ص175.
- <sup>23</sup> الفقيه الإدريسي: "محمد بلعربي العلوي المدغري" (الرباط، موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب، المجلد الأول، الجزء الأول، 2008) ص178.
- <sup>24</sup> محمد الحبابي: "السلفية؛ رجعية أم تقدمية" ضمن كتاب جماعي: "السلفية في المغرب العربي" (الرباط، منشورات جمعية المحيط الثقافية والجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، 1989، ط1) ص160.
- <sup>25</sup> حماد القباج: *حياة شيخ الإسلام: محمد بلعربي العلوي العالم المفكر، والمصلح المناضل* (الرباط، طوب بريس، 2014، ط1) ص189.
- <sup>26</sup> زين العابدين العلوي: *المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن يوسف* (الرباط، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2009، ط1) ص134-136.
- <sup>27</sup> ضمن كتاب جماعي: "السلفية في المغرب العربي" (الرباط، منشورات جمعية المحيط الثقافية والجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، 1989، ط1) ص18-19.
- <sup>28</sup> عبد اللطيف جبرو: *تاريخ الوطنية المغربية* (ب م، ب ن، ب ت، ب ط) ص78.
- <sup>29</sup> ضمن كتاب جماعي: "السلفية في المغرب العربي" (الرباط، منشورات جمعية المحيط الثقافية والجمعية المغربية للتضامن الإسلامي، 1989، ط1) ص219.
- <sup>30</sup> حماد القباج: *حياة شيخ الإسلام: محمد بلعربي العلوي العالم المفكر، والمصلح المناضل* (الرباط، طوب بريس، 2014، ط1) ص204.
- <sup>31</sup> حماد القباج: *حياة شيخ الإسلام: محمد بلعربي العلوي العالم المفكر، والمصلح المناضل* (الرباط، طوب بريس، 2014، ط1) ص204.
- <sup>32</sup> المصدر السابق نفسه، ص205.
- <sup>33</sup> المصدر السابق نفسه، ص207-210.
- <sup>34</sup> عبد القادر الصحراوي: *شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي* (الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1965، ب ط) ص156-157.
- <sup>35</sup> عبد الرزاق السنوسي: *مسارات مائة شخصية فاعلة في تاريخ المغرب من القرن 19 إلى 21* (الدار البيضاء، مطبعة ليمورية، 2010، ط1) ص16.
- <sup>36</sup> علال الفاسي، "أعلام من المشرق والمغرب" (جريدة البصائر الجزائرية، العدد 30، 1948).